اين مهد الانسان : افريقية او آسيا

من مقال للأستاذ اليوت سمث

عن مجلة العلمية الدولية

عُني دارون في كتابه « تسلسل الانسان » بموضوع «مهد الانسان وقدمه» فقال: والمرجَّح ان افريقية كانت قبلاً موطناً لقردة منقرضة تمتُّ بصلة قريبة الى الغورلاّ والشمبانزي . ولما كان هذان النوعان اقرب الحيوانات الى الانسان فالمحتمل ان يكون الاصل الذي تسلسل منهُ الانسان قد قطن القارة الافريقية دون غيرها

وترجيحهُ لهذا القول جاء من ناحية اعتبارهِ « أن في كل بقعة من بقاع الارض تكون الحيوانات البونة الحية قريبة الصلة جدًّا بالانواع المنقرضة التي كانت تقطن تلك البقعة ». ولكن بعد ما اشار دارون الى مهد الانسان هذه الاشارة الطفيفة عاد فاعترف بأنهُ من العبث محاولة الترجيم بهذا الموضوع لقلة الآثار القديمة التي وجدت ولطول المهد بين عصرها وعصرنا والتقلبات الجيولوجية التي قد تكون انتابت سطح الارض فمهدت السبيل لهجرة الحيوانات هجرات واسعة النطاق

وقد انقضى نصف قرن على قول دارون هذا وكثر القول في هذا الموضوع وتضاربت آراء الباحثين. ولكن لما عثر الاستاذ رموند دارت من خمس سنوات على جمجمة بخوانا لذبجنوب افريقية المعروفة بجمجمة تونغ ايضاً وقال في وصفها « انها مثل قرد منقرض قريب الصلة بالغورلاّ والشمبانزي » وانهُ اقرب صلة بالانسان من اي قرد آخر وجدت آثارهُ ، ذكرنا بحكم الطبع نبوءة دارون المذكورة آنفاً التي حققت بهذا الشكل الخلاّب . فعدنا الى النظر في القارة الافريقية كمهد للانسان الاول. وقد اشار كثير من الكتاب المعاصرين الى موافقتهم على قول دارون بأنهُ « من العبث محاولة الترجيم بهذا الموضوع » ولكن قلَّ منهم من يحجم عن ذلك !

لما عثر «لارته» سنة ١٨٣٤ على آثار « دريو بثكوس » في طبقات عصر الميوسين بجنوب فرنسا عرف العلماء ان هذا الفرد المنقرض ، الذي يماثل الشمبانزي في حجمه ، له من الصفات الاولية اكثر من الشمبانزي اي انهُ نوع اقدم منهُ . وقال «غودري» بعد ذلك انهُ

اقرب صلة بالانسان منهُ الشمبانزي . ولكن رأي غودري ظل ثلاثين سنة غير مأخوذ به حتى جاء الدكتور وليم غرغوري من علماء متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك وأثبت بأدلة مقنعة بأن « دريو بثكوس » هذا اشبه القردة بالانسان

ولكن مجرّد وجود آثار قرد منقرض شديد الشبه بالانسان ، في اوربا ، لم يؤخذ دليلاً قويًّا لحسبان اوربا مهد الانسان الاول . وذلك اولاً لان دارون وغيرهُ من العلماء الذين عنوا عناية خاصة بهذه المسألة ذهبوا الى ان الانسان نشأ اولاً في منطقة استوائية الاقليم لان المعروف عن القردة الشبيهة بالانسان (الانثروبويدية) انها لا تطيق السكن في اقليم آخر . لذلك سلّم الباحثون بأن « الدريوبثكوس » انما هاجر الى اوربا في عهد مؤاتٍ لهذه المهاجرة ثم قضي عليهِ بالاندثار في مطلع عهد البليوسين

وقوي هذا الرأي لما عثر على آثار «دريو بثكوس» في طبقات عصر البليوسين في مكان بشمال الهند يدعى آكام «سيڤالك» . قال العلماء اذا سلمنا بأن هذا القرد هو السلف الذي تسلسل منهُ الانسان فلا يلزم عن ذلك ان اوربا مهدهُ الاول . فليس ثمت باعث على العجب ان تكون المكتشفات في آكام «سيڤالك» سنة ١٨٨٦ داعية الى تغيير اتجاه الباحثين في هذا الموضوع مما جعل طائفة كبيرة منهم تعتبر الشرق الاقصى مكاناً يصحُّ ان يكون مهد الانسان . وأيّد ذلك ان عثر في طبقات عصر البليوسين بآكام «سيڤالك» على آثار قرد يشبه شبهاً كبيراً النورلا والشمبانزي والاورانغوتان — القردة العائشة الآن — من جهة والانسان من جهة اخرى فدعي (بالبوبثكوس) وفي سنة ١٨٩٠ نظر الدكتور اوجين ديبوى المساعد بقسم التشريح بجامعة امستردام في هذا الموضوع فاقتنع بالادلة المتجمعة لديهِ فذهب الى ان ارخبيل ملقا هو مهد « الحلقة المفقودة » وللحال اعدَّ عدتهُ ليثبت صحة مذهبهِ بالتنقيب فاستقال من منصبهِ العلمي في جامعة امستردام وذهب الى جزيرة جاوى ضابطاً طبيًّا في جيش الاحتلال . ومن اغرب الغرائب انهُ عثر سنة ١٨٩١ على ضفة نهر سولو بجاوى على آثار انسان قديم مثل الانسان الذي جاء ليثقب منهُ . وعلى الآثار المتحجرة التي وجدها هناك بني النوع الانساني القديم المعروف الآن علميًّا باسم « بثكانثروبوس »

الاسماء العلمية الآتية (بثكانثروبوس وبريوبثكوس وبالبوبثكوس وسيناتثروبوس واوستراوبثكوس وسيفابثكوس) هي اسماء علمية تطلق على انواع القردة الشبيهة بالانسان التي عثر العلماء على بعض آثارها المتحجرة وقد ذكرت في المقالة اماكن وجودها

اما الصور الجيولوجية الثلاثة المذكورة في هذا المقال فهي البليوسين (المتوسط الحداثة) والبليوسين (الكثير الحداثة) والبلستوسين (الاكثر حداثة) فالاول اقدمها (ويعود الى نحو ٦ ملايين سنة) ويليه الثاني (من نحو مليون سنة ونصف مليون) ويليه الثالث على ما تدل اسماؤها

فكان من الطبيعي ان تؤيد هذه الحادثة القول بان آسيا مهد الانسان . وقد انقضى الآن ثلاثون سنة وقول دارون بان افريقية قد تكون هذا مهد لا ينال عناية كافية . فحاولتُ سنة ١٩١٢ ان اوجّه انظار الباحثين الى رأي دارون ، بان وجود اقرب الاحياء الى الانسان ، « اي الغورلاّ والشمبانزي » ، هو اقوى الاعتبارات في تعيين مهد الانسان . ولكني لم افلح حينئذٍ ولا افلحت سنة ١٩٢٢ لما حاولت محاولة ثانية من هذا القبيل

وليس ثمت داع لذكر رأي شوبنساك الذي يحسب استراليا مهد الانسان ولا رأي امغينو الذي يختار لهُ اميركا الجنوبية . فانك لا تجد في كلا هذه المكانين اي اثر لوجود القردة الانثروبويدية سابقاً فيها . ويكاد يكون من باب المستحيل نشوء الانسان في احدهما

اما القول بان آسيا مهد الانسان فيختلف عن ذلك

ان الادلة التي جمعت سنة ١٨٨٦ مشيرة الى ان شمال الهند كان في عصر الميوسين موئلاً للقردة القريبة من القردة الانثروبويدية تأيدت عن طريق المكتشفات التي كشف عنها الدكتور بلغرمْ سنة ١٩١١ فانهُ وجد آثار نوع آخر من القردة دعاهُ « سيفاپثكوس » وفيهِ صفات بلغ من قربها الى صفات الانسان ان حاول الدكتور بلغرمْ وضعهُ في فصيلة الهومينيدي اي الفصيلة الانسانية . ومع انهُ لا يوجد ثمت دليل كافٍ لقبول هذا الرأي — لان التشابه بين اسنان « سيفاپثكوس » واسنان الانسان لا يكفي لرفع قرد من عصر الميوسين الى رتبة البشر . ولكنهُ يدلُّ على صلة القرابة بينهُ وبين اسلاف الانسان — فان الآثار التي وُجدت في آكام « سيفاليك » تدلّ على ما يتنهُ الاستاذ بول Boule ان بلاد الهند كانت في عصر الميوسين معملاً عظيماً واسع النطاق كانت الطبيعة تحاول ان تكوّن فيهِ القردة الضخمة الشبيهة بالانسان التي نشأ من سلالتها في عصور متأخرة حيوانات الاوراتغ والشمبانزي والغورلاّ والانسان . وبكلمة موجزة ان الادلة المتجمعة تشير الى ما يأتي : اذا لم تكن آسيا مهد الانسان فانها على الاقل كانت مهداً للاصول التي نشأت منها الفصيلة الانسانية لما افترق اسلاف الانسان عن اسلاف الغورلاّ والشمبانزي

اما وجود اقدم ممثل للفصيلة الانسانية (پكانثروپوس) المعروف بانسان جاوى في مكان الى الشرق من الهند فيؤيد تأييداً ظاهراً القول بان الانسان نشأ في آسيا . ولكن من المهم الاّ ننسى ان انسان جاوى يعود الى مفتتح عصر البلستوسين وان آثار القردة في آكام سيفاليك تعود الى عصر الميوسين قبلهُ وان في الزمان الطويل الذي انقضى بين العصرين كانت القردة تروح وتغدو غرباً الى افريقيا واوربا وشرقاً الى شواطىء آسيا على الاوقيانوس الهادي . وكان الانتقال اسهل على الانسان الاول منهُ على القردة وعليهِ اذا ذكرنا ان آثار القردة الشبيهة

بالانسان التي من عصر البليوسين والبليوسين وجدت في اوربا وجنوب افريقية وشرق آسيا فلا يستغرب ان نجد آثار الانسان من عصر البلستوسين في جاوى والصين وانكلترا

ان تنقلات البريات اي قسم الحيوانات الذي منهُ الفصيلة البشرية كانت واسعة النطاق زماناً ومكاناً اي انها شملت بلداناً مترامية الاطراف وعصوراً متطاولة وذلك يقلل من قيمة العثور على انسان جاوى كدليل على ان اسيا كانت مهد الانسان

ان اقدم القردة الانثروبويدية التي كشف عنها حتى الآن هي آثار القرد القزم المعروف علميًّا باسم « بروبليوپثكوس » الذي وجد في طبقات مفتح عصر البليوسين في الفيوم . ولكن اذا كانت افريقية موطن القردة الشبيهة بالانسان فالمعروف ان القردة المشهورة بالجبون كانت تمتد من اوربا الى الشرق الاقصى حيث تعيش الآن . ان اسلاف القردة الضخمة الشبيهة بالانسان كانت في المنصف منتصف عصر البليوسين ومثل حيوانات الجبون التي تقدمتها كانت تمتد فوق منطقة واسعة من سطح الارض الى اواسط افريقيا . اما الاورانغ فحفظ في ارخبيل ملقا ونوعا القردة العائشة التي تمت باقرب صلة الى الانسان يعيشان في افريقية

فتحديد مسألة المهد الذي نشأت فيه الفصيلة البشرية متين الاتصال بمصير اقرب اقربائه الانسان وموطنها الجغرافي

لو افترض الغورلا والشمبانزي من افريقيا لصح القول بان كل القردة الضخمة رحلت شرقاً مع اسلاف انسان جاوى وان اتجاه كل البريات الاولى كان الى الشرق.

ولكن في سنة ١٩١٢ جاء الكشف عن انسان بلتدون بانكلترا فاثبت ان في الطرف الغربي من اوربا كان يقطن طراز من البشر قديم قدم انسان جاوى ولكنهُ اكثر منهُ ارتقاء واقرب الى الانسان . فاذا قرنا هذين الاكتشافين — انسان جاوى وانسان بلتدون — خلصنا الى النتيجة بان الفصيلة البشرية اقدم كثيراً من كليهما لانهما فرعان مختلفان لاصل واحد رحل كلٌّ منهما الى اقصى حدود القارة الاوربية — الاسيوية . فيدر الى الذهن حينئذٍ ان بلاد الاصل الذي نشأ منهُ كلاهما يجب ان تكون بين انكلترا وجاوى . واذا كان الكشف عن انسان جاوى قد حمل العلماء على الاتجاه شرقاً للبحث عن مهد الانسان فالكشف عن انسان بلتدون ردَّهم غرباً فتحكم التوازن بين الفريقين

وقد عمد بعض علماء الآثار المتحجرة من الاميركيين بعد درسهم لتوزيع الحيوانات البرية الى القول بان قلب القارة الاسيوية — كصحراء منغوليا الغربية — يحتمل ان يكون مهد الانسان . ولكن يجب الا ننسى اننا لا نملك دليلاً واحداً يؤيد هذا الرأي حتى ولا بشير اشارة طفيفة الى امكان ترعرع اسلاف الانسان في منطقة هذا بعدها عن الاقاليم

الاستوائية وهي الاقاليم الوحدة التي تعيش فيها القردة . حتى اكتشاف انسان باكين (سينانثروبوس) حديثاً الى شمال باكين لازيد احتمال نشوء الانسان في منغوليا . لان قدوم اسلاف الانسان الى جوار باكين من الجنوب على شواطىء آسيا الشرقية أيسر واكثر احتمالاً من اجتيازهم لصحراء منغوليا

ففي ضوء المكتشفات الحديثة التي نملكها نرى ان الاعتبارات التي اشار اليها داروين من اكثر من نصف قرن لاتزال الى الآن اهم الاعتبارات التي تتناول مهد الانسان

فان بقاء الشمبانزي والغورلا في افريقيا الى عصرنا — وهما اقرب القردة الى الفصيلة البشرية — والعثور على آثار « دريوبثكوس » في طبقات عصر الميوسين باوربا يشيران الى أن القردة الشبيهة بالانسان التي تسلسل منها الانسان تراجعت غرباً الى افريقية واوربا لما بدأ توزعها وانتشارها من الهند

فاذا صح ما يبدو لنا ثابتاً لا يقبل الريب ، أنْ لا بدَّ من أقليم استوائي مستمر لبقاء القردة الشبيهة بالانسان ، ترجح لدينا اخراج اوربا من حظيرة النشوء الانساني وصارت افريقيا لذلك اصلح البلدان لمعمل النشوء . ان نزول الغورلا والشمبانزي في افريقيا في عصر انتشارهما مع غيرهما من الهند وبقاءهما فيها الى الآن يثبت ان الاحوال الاقليمية كانت موافقة لبقائها . وعليه نجد قوة الادلة التي ترجح ان افريقيا الاستوائية اولاً وشواطىء آسيا على الاوقيانوس الهند ثانياً — ولكن هذا اقل احتمالاً من الاول — هي المكان الذي اتخذ فيه سلف الانسان القردي الاوصاف الانسانية

وهناك وجهٌ آخر اشرت اليه سنة ١٩١٢ وابنت خطورة العناية به في مباحث من هذا القبيل . ذلك انهُ اذا ظلَّ الحيوان عائشاً في احوال توافقهُ كل الموافقة فغير محتمل أن يتطوّر . ولا يحصل التطور الا اذا واجههُ انقلاب خطير في محيطه او طريقة حياته وكان عليه أن يختار بين التطور لموافقة الاحوال الجديدة او الانقراض . وقد يكون هذا التطوُّر تخصصاً في عضو معين او عادة خاصة من عادات المعيشة تمكنهُ من مواتاة الاحوال الخاصة التي تواجههُ . او قد يكون التطوّر من النوع المتزن الواسع النطاق فيمهد لهُ سبيل الارتقاء الصحيح لزيادة سيطرته على احوال بيئته . فالقردة مثلٌ على التطور الضيق . والانسان على التطور المتزن الواسع النطاق

فالقردة الشبيهة بالانسان مقيدة بالمعيشة في الحراج الاستوائية . ولكن الانسان اكتسب القدرة على المعيشة في كل البلدان مهما اختلف اقليمها . على أن اسلاف الانسان لم يكتسبوا هذه القدرة الا تحت ضغط الحاجة الشديدة لما خرجوا من حراج الاقليم

الاستوائي . في جهادهم لملاءمة انفسهم للاحوال الجديدة كسبوا معرفة وخبرة وقوى الانسان على الفهم والنظر الى الامام

المشهور ان افريقية شديدة السخاء بالمفاجآت التي تطالعنا بها ولكنها لم تبح بشيء من اسرارها فيما يتعلق بأنواع الناس والقردة المنقرضة الا من عهد حديث . ففي سنة ١٩١١ جهزتنا افريقية بأقدم الادلة على شبوه القردة الشبيهة بالانسان ولكن الباحثين لم يعثروا فيها على اثر انسان متحجر الا سنة ١٩١٣ اذ كشف في بوسكوب بالترنسفال عن اثر انساني وسنة ١٩٢١ كشف عن جمجمة انسان روديسيا التي ينطوي صاحبها تحت نوع انساني خاص لم يكن معروفاً من قبل والظاهر انهُ يرجع الى عصر جيولوجي حديث

وفي نوفمبر سنة ١٩٢٤ جاءنا بعض هذه الاكتشافات على الدهشة. كان ذلك اثر قرد شبيه بالانسان يختلف عن ضروب القردة المعروفة — ولكنهُ في رأي مكتشفه — اشدها شبهاً بالفصيلة الانسانية . هذا هو الاثر الذي كشف عنهُ الاستاذ ريمون دارت في بحوانالاند بجنوب افريقية واسمهُ العلمي « اوسترالوبثكوس افو تولنز ». والظاهر انهُ يزيد قوة الادلة التي تؤيد نظرة دارون بأن افريقيا هي مهد الفصيلة الانسانية . قد تكون الادلة غير قاطعة . ولكن اذا كان ميزانها متساوياً بين كفتي آسيا وافريقية فكل دليل جديد مهما يكن ضئيلا كاف لترجيح احدى الكفتين . وقد وجه الاستاذ روبرت بروم عناية الباحثين حديثاً الى ان آثار الحيوانات المتحجرة التي وجدت مع جمجمة تونغ تعين عصر الطبقة التي وجدت فيها في مفتتح عصر البليوسين

ان جمجمة تونغ هي جمجمة طفل تماثل في درجة نموها جمجمة ولد معاصر في السادسة من عمره وهي درجة يصلها القرد في السنة الثالثة او الرابعة من عمره. اما الشبه بين صغار القردة الانثروبويدية والاطفال البشرية اكبر منهُ بين الكبار لان ظهور الصفات الخاصة في الانسان في اثناء تقدم سنه تحجب الشبه الاصلي بينهما. ومتى قابلنا جمجمة تونغ بما يقابلها من صغار الاورانغ والشمبانزي والغورلا وجدنا قرد تونغ الانثروبويدي يختلف عنها اختلافاً بيّناً . (ثم اتى الاستاذ اليوت سمث على موازنة تشريحية بين الفريقين وختم مقاله بقوله). ان كل الحقائق التي استخرجها من آثار تونغ تتفق مع تبؤ دارون بالعثور على آثار قردة منقرضة في افريقية تختلف عن الغورلا والشمبانزي وان في هذه الآثار قد نجد بعض التأييد للقول بان افريقية على الترجيح هي مهد الفصيلة الانسانية